مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 2 السنة: 2021
ص: 506 - 520 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الرواية والتاريخ وإشكالية التداخل

Novel, History and the Problem of Interference

[*] بوجمعة بوحفص

Bouhafs Boudjemaa

جامعة العربي التبسي . تبسة . (الجزائر)

Larbi Tébessi University - Tébessa - (Algeria)

boudjemaa.bouhafs@univ-tebessa.dz

تاريخ الإرسال:2020/11/05	تاريخ القبول:2021/01/05	تاريخ النشر : 2021/06/02

ملخص البحث

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط بعض الضوء على اشتغال الرواية على مادة التاريخ والذي يفتح باب التساؤلات حول علاقة الرواية بالتاريخ، والتي كانت موضع خلاف بين الروائيين والنقاد. ومن تلك التساؤلات المشروعة نذكر: هل يمكن اعتبار الرواية مصدرا موثوقا للمعلومة التاريخية؟ وما طبيعة العلاقة بين الرواية والتاريخ، وهل ثمة فروق بين الرواية التاريخية والرواية التي تستغل التاريخ لتمرير رؤى وأفكار معيّنة؟ وهل إعادة كتابة التاريخ أدبيا تساهم في توجيه الرأي العام؟ فهذا البحث يهدف إلى الكشف عن العلاقة المتجذرة بين الرواية والتاريخ وتبيان إلى أي مدى يمكن للرواية أن تستلهم التاريخ لتسهم في صوغ الهويات الثقافية للأمم. وكيف يمكن للمادة الحكائية أن تتكئ على حقائق التاريخ التي تكسب السرد الروائي خصوبته. لذا سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية توضيح بعض المصطلحات اللصيقة بالموضوع منها خاصة الرواية والتاريخ والتخييل الروائي والتخيل التاريخي وغيرها من المصطلحات.

الكلمات المفتاح: الرواية، التاريخ، التخيل، العلاقة، الأدب.

Abstract:

This study seeks to illuminate the work of the novel on the theme of history, which opens questions of the relationship between the novel and history, which has been the subject of constant controversy between novelists and critics. Among these legitimate questions are: Can the novel be considered a reliable source of historical information? And what is the nature of the relationship between the novel and the story, and are there differences between the historical novel and the novel that exploits history to convey certain visions and ideas? And if the rewriting of literary history helps guide public opinion? This research aims, thus, to uncover the deeply rooted relationship between the novel and the story and to show how the novel can

[*] بوجمعة بوحفص . boudjemaa.bouhafs@univ-tebessa.dz

be inspired by the story to help shape the cultural identities of nations, and how the narrative material can build upon on the facts of the story that enrich the fertility of the narrative story. Therefore, we will try through this article to clarify certain terms related to the subject, including the novel, history, fiction, historical imaginary and other terms.
Keywords: Novel, History, Imagination, Relation, Literature.

مقدمة :

انتقل اهتمام الرواية العربية الحديثة إلى قضايا الإنسان ومشكلاته واهتماماته اليومية، وارتبطت أكثر بالواقع ،ومن ثَمَّ تغيّرت أساليبها الفنية وتطورت طرائق تعبيرها واتسعت روافدها المعرفية، فاستفادت من الأجناس السردية الأخرى من الموروث الحكائي القديم ، لتعود إلى التراث والتاريخ باعتباره من أهم مكونات التراث التي أصبحت تستند عليه الرواية الحديثة وتتكئ على أحداثه لتوظيفه وتمثُّل أشكاله، حتى غدا التاريخ والرواية شكلان متعانقان لا يفترقان في كثير من الأحيان، بل إن الرواية قد نحت منحىً تاريخيا إذ ظهر ما يسمّى بالرواية التاريخية.

وقد أفضى هذا التداخل إلى نقاش وجدال ما فتئ ينمو ويتطور بين الأدباء والنقاد حول طبيعة هذه العلاقة بين الرواية كتحليل والتاريخ كمعرفة.

وبرزت من جرّاء ذلك جملة من المصطلحات الجديدة في هذا السياق. الأمر الذي حدا بنا إلى تناول هذا الموضوع بالبحث علّنا نتوصل إلى بسط بعض المفاهيم وتوضيح بعض المصطلحات على غرار" المتخيل الروائي" و "الخيال الأدبي" والتخيل التاريخي" وغيرها من المصطلحات اللصيقة بهذا الموضوع.

أولا: بين الرواية والتاريخ:

العلاقة بين الرواية والتاريخ لا تزال موضع خلاف وجدل مستمرين بين الروائيين والنقاد، ذلك أن الرواية يمكن أن تكون مصدرا من مصادر التاريخ، كما أن التاريخ يمكن أن يكون مرجعا للرواية ومصدرا تستقي منه موضوعاتها وتستلهم من خلاله شخصياتها.

وقد تسبب ذلك في اختلاف الرؤى بينهم في التمييز بين كتابة التاريخ والرواية التاريخية والرواية الفنية أو الأدبية. ولعل مرد ذلك إلى كون الرواية التاريخية تشترك ما مع الرواية الأدبية في تلك البنية التاريخية التي تتأسس عليها خاصة الأشخاص والفضاء كما هما في الواقع.

إضافة إلى ما تتميز به الرواية من اتساع وشمولية، وذلك أنّ " الرواية من أكثر الأجناس الأدبية احتواء للمعرفة الإنسانية في العصر الحديث، فكل ما في الحياة هو من اهتمامها؛ فالنفس والمجتمع والمشاعر والتاريخ والماضي والحاضر من الحياة " [1].

فقد خصص كثير من الدارسين أعمالا نقدية للرواية وعلاقاتها بالتاريخ؛ مثل ما فعل جورج لوكاتش في كتابه" الرواية والتاريخ " وكذلك فعل نضال الشمالي في دراسته الموسومة بـ " الرواية والتاريخ " وغيرهما كثير.

حتّى أن بعض النقاد يعتبرون الرواية التاريخية عملا قليل الأهمية إبداعيا، ما يجعلها أدنى من العمل الروائي. لذلك حاول بعض النقاد التمييز بين الرواية التاريخية التي تقوم على سرد وقائع أحداث جرت في الماضي، متبعة في سردها التسلسل الزمني الطبيعي، والرواية التي تتخذ من التاريخ فضاء لها مستخدمة في ذلك أدوات الخطاب التخييلي. ولأنها أي الرواية "جنس حواري آكل للأجناس. على حد تعبير باختين. أو أنها جنس لا قانون له " [2] .

مما جعل الرواية تشترك مع التاريخ في عناصر عدّة هي: الإنسان والزمان والمكان، والأسلوب القصصي. غير أن هناك فرقا شاسعا وبونا واسعا بين التاريخ والرواية، على اعتبار أن كلا منهما ينتمي إلى حقل معرفي بعيدا عن الآخر، لأن " التاريخ خطاب نفعي يسعى إلى الكشف عن القوانين المتحكمة في تتابع الواقع" [3].بينما الرواية "هي خطاب جمالي تقدَّم فيه الوظيفة المرجعية [4].

ومن هنا يأتي الفرق بين عمل كل من المؤرخ والروائي؛ فكلاهما يوظف خياله لحظة تشييد سرده حيث يسعى كل منهما إلى توضيح التجربة البشرية القائمة بالزمن وفي الزمن فهي لا تتميز ولا تتمفصل ولا تتوضّح إلا بالسرد [5].

إلا أن الفرق بين عمل المؤرخ والفنان يكمن في كمية الخيال لا نوعه.[6] لذلك يعتبر التاريخ مصدرا هاما تعتمد عليه الرواية التاريخية، إذ أنها تستقي مادتها منه، فالروائي والمؤرخ يغرفان من مصدر واحد ويتقاطعان في نقطة مشتركة وهي العودة إلى أحداث الماضي؛ إلا أن كل واحد منهما يختلف عن الآخر في الهدف.

إنّ المؤرخ يسعى إلى ملامسة الحقيقة بينما يتمثل مسعى الروائي إلى ملامسة الجمال والتأثير على المتلقي باستعمال أسلوب التشويق، وكل منهما يسعى لتقديم الحقيقة ولكن المؤرخ

يقدمها من خلال التقرير حيث يسعى إلى أن تكون تلك الحقائق كما يفترض أن وقعت في زمانها الماضي، بينما يقدمها الروائي من خلال التصوير أي صياغتها من خلال تصويرها كما يراها هو ويضفي عليها صبغة جمالية فنية. وعليه، فإن المؤرخ لا يستطيع أن يحيد عن رواية الأحداث الفعلية كما وقعت في الماضي، أمّا الأديب فله حرية المناورة ورواية ما الممكن وما يحتمل أن يحدث، فيكون بذلك حرا إلى حد ما ومجاله أوسع..

والرواية بشكل عام " هي بنية زمنية متخيلة خاصة، داخل البنية الحدثية الواقعية، أو بتعبير آخر . أكثر عينية وتحديدا . هي تاريخ متخيّل داخل التاريخ الموضوعي، وقد يكون هذا التاريخ المتخيل جزئيا أو عاما، ذاتيا أو مجتمعيا، فقد يكون تاريخا لشخص أو لحدث أو لموقف أو لخبرة، أو لجماعة، أو للحظة تحول اجتماعي، إلى غير ذلك" [7] .

لأن بنية الرواية لا تنشأ من فراغ وإنما هي ثمرة للبنية الواقعية السائدة الاجتماعية والحياتية والثقافية على السواء. لذلك أكد الناقد عبد الله إبراهيم في تمهيده لكتابه (التخيل التاريخي: السرد، الإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية) على ضرورة استبدال مصطلح الرواية التاريخية بمصطلح (التخيّل التاريخ) * الذي يجمع في بنيته بين مفهومي التخيل الذي يقوم على أساسه أي عمل روائي والتاريخ، باعتبار أن كل واقعة اجتماعية هي واقعة تاريخية.

لأنّ المصطلح الجديد كفيل بتفكيك ثنائية الرواية والتاريخ ودمجهما في هوية سردية جديدة فلا يرهن نفسه لأي منهما، كما أنه سوف يحيّد أمر البحث في مقدار خضوع التخيلات السردية لمبدأ مطابقة المرجعيات التاريخية [8] .

إن علاقة الرواية بالتاريخ علاقة تتصل بالواقعة والخبر والقص. وهي علاقة متينة وواهية في آن، وتمتاز بالاقتراب والابتعاد، والتضادّ والتقاطع، وبمقدار ما تحمل الرواية من تفاصيل لأحداث ووقائع وشخوص، فهي تحاول بصورة أو بأخرى أن تشاكسها وتتمرد عليها وتكشف عن المسكوت عنه. فالرواية نفسها تمثل نتاج السياق التاريخي للتحولات في المجتمع والكون، وتمثل نوعاً من الصراع الخفيّ لحيازة سلطة المتخيّل وفضاء الكلام، وامتلاك مفاتيح الذاكرة .

وقد أثار موضوع العلاقة بين الرواية والتاريخ جدلا كبيرا بين النقاد، حيث اختلفوا في كيفية توظيف الأحداث التاريخية في المتن الروائي، وبأية طريقة يكون تناول الرواية لأحداث معينة من التاريخ. فتساءل بعضهم قائلا: هل يتحوَّل الكاتب الروائي إلى شاهد عيان يستحضر الماضي

بشكله الجامد ومسلماته الجاهزة؟ وهل على الروائي الالتزام بصرامة الموضوعية وإتباع القواعد والقوانين التي تحكم التاريخ أم أن له حرية التصرف في الأحداث التاريخية وإعادة صياغتها من منظور التخيل دون قيد ولا شرط؟

وفي هذا الصدد يبيّن جورجي زيدان ماهية الرواية التاريخية ووظيفتها فيقوله "...إننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لا هي عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج، وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية، وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة (...)

وأما نحن فالعمدة في رواياتنا على التاريخ، وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها، وندمج فيها قصة غرامية، تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصبح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ [9].

ومن هنا، يمكن القول إن التاريخ يشكل المادة الخام للرواية، وهو الرافد الذي تغرف منه وقائعها وأخبارها وشخصياتها، فالتاريخ "يصبح مكونا روائيا قادرا على التشخيص والاستنطاق خارج الافتراضات المسبقة التي (قد)تستدعيها إمكانات الكتابة الروائية والقراءة على حد سواء [10].

ولمّا كان الأمر بهذا الشكل من التشابك بين الرواية والتاريخ؛ التاريخ المؤسس على الحقائق والقوانين والرواية التي تستند إلى الخيال والتصوير، واعتماد كليهما على الوقائع والخيال في صوغ الخبر، كانت الرواية " أقرب الفنون الأدبية إلى التاريخ " [11] .

كان لزاما علينا بسط بعض المفاهيم والمصطلحات المتعلق بهذا الموضوع؛ فلا بد من التعرض إلى مفهوم التاريخ، ثم نوضح المصطلح المزجي (التخيل التاريخي) الذي أشار إليه الباحث إبراهيم عبد الله والذي استبدل به مصطلح (الرواية التاريخية).

ثانيا: الخيال الأدبي والتخييل الروائي:

الخيال في أبسط تعريفاته هو إبداع (أو القدرة على إبداع) الصور الذهنية عن أشياء غير ماثلة أمام الحواس أو عن أشياء لم تشاهد من قبل في عالم الحقيقة والواقع. والخيال عنصر أساسي من عناصر الأدب بعامة، والشعر بخاصة. وهو يلعب دورا أساسيا أيضا في مضمار العلم

والاختراع: إن معظم الكشوف العلمية، والمخترعات التقنية تمثلت لأصحابها من طريق الخيال قبل أن تتخذ سبيلها الطويل إلى التنظير العلمي أو التحقيق العملي [12] .

لذلك حظي الخيال باهتمام كبير من قبل الشعراء والأدباء والنقاد في كل الكتابات التقليدية وحتى الحديثة، وقد نظر إليه الفلاسفة والأدباء والنقاد نظرات مختلفة باختلاف العصور الأدبية منذ نظريات أرسطو، وكتابه (فن الشعر) الذي تأثر به الفلاسفة المسلمون من أمثال الكندي والفرابي وابن سينا وابن رشد .

ثم ما لبث هذا التأثر أن انتقل إلى مجال البلاغة والنقد في العصر العباسي وما بعده ،وقد انصب الاهتمام على نظرية المحاكاة الشعرية عند أرسطو والتي تدرس عنصر الخيال وكانت الثقافة العربية هي الوسيط الذي انتقلت فلسفة أرسطو خلاله إلى أوربا بفضل الترجمة إلى اللاتينية "وإن كان مؤرخو نظريات الخيال المتعاقبة في الفكر الأوروبي يذهبون إلى أن مصطلح الخيال هو أحد المصطلحات التي انتقلت من مجال الفلسفة إلى مجال الأدب بعد أن تحددت قسماته في ظل مباحث فلسفية محددة ،فإن هذه الحقيقة يمكن أن تنطبق على التراث النقدي عند العرب" [13] .

وتفاوت الاهتمام بالخيال في الإنتاج الأدبي من مذهب إلى آخر ومن مدرسة نقدية إلى أخرى وفقا لفلسفتها العامة. فقد ركز الأدباء الكلاسيكيون في إبداعاتهم على توظيف العقل أكثر من اعتمادهم على الخيال، لأن الأدب الكلاسيكي " كان أدب تقليد واحتذاء لا أدب وحي وإلهام، أدب صورة وقالب لا أدب جوهر ولب. أدب لياقة وكياسة وبراعة لا أدب عبقرية وروح " [14] .

ولأنهم كانوا ينظرون إلى الخيال نظرة ازدراء واحتقار، يجرّ الكاتب إلى دركات الخطأ، فقد "اصطبغت الكلاسيكية بطابع تقليدي محافظ وبالدعوة إلى تخليص الشعر من الخيال الجامح والنزعات الفردية والعواطف الجياشة، واعتمد الكلاسيكيون العقل وفضلوه لما فيه من ثبات وعدم تغير جعلهم دعاة إلى أن يقاد الخيال بالعقل الجماعي أو الذوق السليم" [15]، لأن الخيال . عندهم . يمثل " الجانب الخادع في النفس الذي يقود إلى الخلل والزلل " [16].

وكان ديكارت عدوا للخيال . على حد تعبير أحد النقاد . لأنه كان يعتقد أن " الخيال يشوّش الفكر ويحول دون أن يباشر العقل عمله بطريقة صحيحة " [17].

وقد تأثر العرب بالمذهب الكلاسيكي وبنظرية المحاكاة والتقليد الكلاسيكية والتقليل من سطوة الخيال في الإبداع الأدبي.

ومن هذا المنطلق انبرى الداعية الإسلامي محمد عبده في التحذير من مغبة الاعتماد على الخيال في الكتابات الأدبية لأنه في اعتقاده مدعاة إلى الكذب. فقد كان " يحذر وبقوة من الأثر الفادح لكتب الأكاذيب الصرفة التي تتحرك في أفق مشبع بالتخيلات، ويثني على منع نشر كتب الفروسية العربية، وفي مقدمتها السير الشعبية التي صورت تخيليا بطولات الفرسان كعنترة بن شداد، وأبي زيد الهلالي، وسيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة، وغيرهم" [18].

وما إن ثارت النزعة الرومانتيكية واعتلت عرش الأدب الفن عموما حتى على صوتها يندد بنظرية المحاكاة والتقليد الكلاسيكية التي تصدعت عراها أمام تمرد الرومانتيكية التي حملت فكرة مختلفة في طابع الخيال الشعري ووظيفته.

ولقد كان الخيال عند الرومانتيكيين " أحب من عالم الحقيقة المحدود، ذلك أنه يفتح أما الشعراء رصيدا إلى اللامتناهي، سواء كانت اللانهاية في العلم أو المتعة أو القدرة الإنسانية. ولعل هذا الوعي الخيالي باللامتناهي هو الذي جعلهم يتوقون إلى الكشف عن أسرار الطبيعة، ويزدادون رغبة في المعرفة وإماطة الحجاب عن المجهول والإفلات من قيود الزمان والمكان.

ومن مظاهر هذا الخيال الرومانتيكي نشدان الحياة الفطرية الصافية، وتجاوز الحاضر إلى مستقبل آمل أو بائس، أو إلى ماض تاريخي يجد فيه الشاعر ضالته، والشعور الحاد بالاغتراب الزماني والمكاني " [19] .

وسرعان ما انتكس دور الخيال في الأدب بظهور المدرسة الواقعية التي استندت من جديد على نظرية الانعكاس التي ترى بأن الأدب هو انعكاس للواقع وتعبير دقيق عن مجرياته ونقل أمين لمعطياته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ثم ظهرت دعوات مناهضة لواقعية الأدب ودعت إلى إعادة الأدب إلى أدبيته. والعودة بالرواية إلى كونها فنا أدبيا يقترن بالتخييل، نافية أن تكون الرواية مرآة عاكسة للواقع، لأن "فكرة الانعكاس هي شكل من أشكال إهانة الإبداع يجعله لصيق المرحلة، في وضع المنتظر الذي لا مسؤولية له سوى ترقب المناسبات للكتابة عنها " [20].

ومن هذا المنطلق تتحدد مهمة الروائي في إعادة صياغة الوقائع والأحداث وتصويرها مستعينا بالتخييل، لأن " السرد متى استعان بالصورة دخل العالم التخيلي، إلى حقله الخاص، وبقيت (الأحداث الواقعية) قاعدة قابلة للتحريف عند الضرورة، ولأن الضرورة الفنية تتطلب تجاوز الظرف، فإن التحريف نفسه سيغدو قاعدة.

أما الواقع فلا يمثل إلا نسبة ضئيلة من العمل الأدبي وليس العكس. وهذا العكس معناه تخلي الكاتب عن شخصيته والغوص في قضايا لا تعنيه ككاتب، قضايا تعني الإمام والسياسي والجمعيات الخيرية مثلا. لكنها ليست أدبا، أو أنها أدب قابل للتقويض في أية لحظة " [21].

وهذا هو المفهوم الجديد للخيال، إنه التخيل الروائي الذي اتسمت به الرواية الحديثة والذي "يقصد به ذلك النوع الأدبي الذي يصف الأحداث والشخصيات بطريقة خيالية لا تمت بأدنى صله إلى الواقع أو الحقيقة المرجعية، ويعني التخييل كذلك ذلك الشيء الذي تم اختلاقه واختراعه بدون أن يكون له أساس واقعي " [22].

ومن هذا الجانب يأتي الفرق بين الخيال الأدبي في الشعر أو الرواية العربية التقليدية والتخييل الروائي في الرواية العربية الحديثة : فالرواية التقليدية تلتزم بالموضوعية في وصف الأحداث وصياغة الأخبار، بحيث " تمزج بين الواقع الخيال في بوتقة واحدة فنية جمالية لا تتعدى نطاق العقل والخيال إلى التخييل والإغراب التخييلي؛ نظرا لهيمنة المرآة والتوثيق الموضوعي في تشخيص الذات والواقع بينما تتجاوز الرواية الجديدة والحداثية كلا من الخيال والواقع معا إلى التخييل وخلق عوالم افتراضية وممكنة قائمة على الانزياح والمفارقة وتجاوز الوعي والواقع إلى اللاواقع واللاوعي خصوصا في الرواية الفانطاستيكية ،ورواية التخييل التاريخي ، والتخييل الصوفي ورواية التخييل الأسطوري" [23].

وخلاصة القول إن للتخييل علاقة متينة بالعقل من جهة، وبالواقع من جهة ثانية باعتباره عملية ذهنية تبحث عن بديل للواقع دون أن تحاكيه، وهو بعبارة أخرى، فالتخييل الروائي هو " بناء ذهني يحيل على واقع ويستند إليه، وهو نوع من الممارسة لهذا الواقع، وهذه الممارسة تكون في شكل إعادة إنتاجه أو ترتيب علاقاته أو تشكيله من جديد " [24].

ثالثا: حول مصطلح " التخيل التاريخي:"

إن مصطلح (التخيل التاريخي) مصطلح جديد يدخل حقل السردية العربية والدراسات النقدية الحديثة على يد الباحث عبد الله إبراهيم في كتابه الجديد (التخيل التاريخي: السرد، والإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية)، والذي نال جائزة الشيخ زايد للكتاب عام 2013، فرع الفنون والدراسات النقدية.

ويتضمّن الكتاب موضوعات مهمة، أبرزها: الإمبراطورية والسرد والتاريخ، والتهجين السردي وتمثيل الأحداث التاريخية، والسرد والتاريخ واللاهوت، وكتابة مقدسة وكتابة مدنسة وانشقاقات دينية، والتخيل التاريخي. فقد دعا عبد الله إبراهيم إلى ضرورة استبدال مصطلح (الرواية التاريخية) بمصطلح أكثر دقة وهو (التخيل التاريخي).

ذلك أن الأسلوب الذي كتبت به الرواية التاريخية لم يعد مقبولا لأنه عبّر عن التصورات الأولى لوظيفة (الرواية التاريخية) في صيغتها البدائية لدى الروائيين العرب. وقد استنفد قدراته الوصفية بعدما برز تحوّل جذري في طبيعة الكتابة السردية التاريخية، وتصنف الروايات التاريخية العربية بصيغتها القديمة ضمن تاريخ الأنواع السردية. لذا أعاد الباحث طرح المفهوم بتحولاته الجديدة ضمن مصطلح (التخيّل التاريخي) مكان مصطلح (الرواية التاريخية).

ورأى أن الأسباب الموجبة لذلك كثيرة، فالتخيل يدفع بالكتابة السردية التاريخية إلى تخطي مشكلة الأنواع الأدبية وحدودها ووظائفها، ويفكك ثنائية الرواية والتاريخ ويعيد دمجهما في هوية سردية جديدة، لا يرهن نفسه لأي منهما.

ويحيّد البحث في مقدار خضوع التخيلات السردية لمبدأ مطابقة المرجعيات التاريخية، فينفتح على كتابة لا تحمل وقائع التاريخ، ولا تعرّفها، إنما تبحث في طياتها عن احتواء العبر المتناظرة بين الماضي والحاضر من خلال أطروحات المستقبل وإكراهاته، والبحث عن التماثلات الرمزية فيما بينها.

ومن خلال الكشف عن التأملات والمصائر والتوترات والانهيارات القيمية والتطلعات الكبرى، فتجعل من كل هذا إطارا تنظيميا لأحداثها ودلالاتها [25].

ويعرف عبد الله إبراهيم مصطلح (التخيل التاريخي) قائلا " هو المادة التاريخية المتشكلة بواسطة السرد، وقد انقطعت عن وظيفتها التوثيقية والوصفية، وأصبحت تؤدي وظيفة جمالية ورمزية، فالتخيل التاريخي لا يحيل على حقائق الماضي، ولا يقررها، ولا يروّج لها، إنّما يستوحيها

بوصفها ركائز مفسرة لأحداثه، وهو من نتاج العلاقة المتفاعلة بين السرد المعزّز بالخيال، والتاريخ المدعّم بالوقائع، ولكنه تركيب ثالث مختلف عنهما" [26].

فالتخيل التاريخي وفق هذا التعريف هو المادة التاريخية المتشكلة بواسطة السرد بعدما انقطعت عن وظيفتها التوثيقية والوصفية، وأصبحت تؤدّي وظيفة جمالية ورمزية. فهو لا يحيل على حقائق الماضي، ولا يروج لها وإنما يستوحيها بوصفها ركائز معرفية تساعد في تفسير أحداثه من خلال نصوص أدبية أُعيد حبك موادها. التاريخية لتتلاءم مع طبيعة الخطاب الأدبي، بمعزل عن أبعاده التاريخية الحقيقية والروائي مُلزم بابتكار حبكة للمادة التاريخية بعد تحويلها إلى مادة سردية.

وهي تعبر عن دينامية جديدة تقوم على دمج أحداث تاريخية لتشكّل قصة موحدة ومتكاملة، بالاستناد إلى أحداث متنوعة قد تكون متباعدة أحياناً في المكان والزمان. ويميل الروائي عند صياغة الحبكة إلى تغليب تقلبات التاريخ على الدلالات المتباينة للأحداث المروية [27].

ومن هذا المنطلق يتحدد موقع التخيل التاريخي ومنزلته في العملية السردية، حيث أنه يتمركز في منطقة:" التخوم الفاصلة بين التاريخي والخيالي، لينشيء منطقة حرّة مكوناتها بعضها من بعض، وتكون تشكيلا جديدا متنوع العناصر" [28].

وبهذا يقع التمازج بين ما هو تاريخي وما هو أدبي، عن طريق الحبكة السردية، التي توّلف بين طرفي نقيض الوقائع التاريخية والخيال الروائي، فيما يسمّى بـ (الهوية السردية) ، التي هي" البؤرة التي يقع فيها التبادل والتمازج والتقاطع والتشابك بين التاريخ والخيال بواسطة السرد ،فينتج بذلك تشكيل جديد يكون قادرا على التعبير عن حياة الإنسان بأفضل مما يعبر عنه التاريخ وحده أو السرد الأدبي بذاته ومفرده[29] .

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن هذا المصطلح (التخيل التاريخي) الذي دعا إليه إبراهيم عبد الله قد واجه موجة من الاستهجان والرفض إن على مستوى براء اختراع المصطلح وملكيته، أو على مستوى مدي حداثة المصطلح وقدرته على تقويض دعائم الرواية التاريخية وإلغائها والوقوف على أطلالها.

ذلك أن بعض النقاد قد شكك في أسبقية عبد الله إبراهيم في ابتكار المصطلح، وأنه ليس من اختراعه قط، فقد سبقه إليه بعض النقاد والأدباء الغربيين وقد سبق وأشرت إلى هذه القضية في موضع سابق من هذا البحث .

وقد علق الناقد الكبير سعيد يقطين على هذا المصطلح وانتقده بقوة قائلا:" كتب الزميل عبد الله إبراهيم: (آن الأوان لكي يحل مصطلح (التخيل التاريخي) محل مصطلح (الرواية التاريخية). فهذا الإحلال سوف يدفع بالكتابة السردية إلى تخطي مشكلة الأنواع الأدبية وحدودها ووظائفها).

هذه القولة ملخص كتابه «التخيل التاريخي). ولعل مناقشتها تكشف لنا بجلاء أن بعض الأفكار حين لا تكون مؤسسة على خلفية معرفية سردية لا تسهم في تطوير النظرية، وتظل بذلك لا تخدم التطور السردي، وإن كان صاحبها يرى عكس ذلك.

أرى بدءا أن (الرواية التاريخية) مفهوم نوعي لاتصاله بتحقق سردي له تاريخ في الإنجاز الروائي العربي والغربي. ولا يمكن لأي كان أن يدعي أنه، سيلغيه من التاريخ، ويحل محله مفهوما آخر. لنفرض من سيأتي ويقول لنا على غراره: إن "الرواية الواقعية" مصطلح غير دقيق، وعلينا أن نعوضها بـ(التخييل الواقعي).

إن هذا الاقتراح يقضي باستبدال مفهوم نوعي بآخر. فهل هذا الاستبدال، أو الإحلال، يدخل في نطاق تطوير الأنواع السردية؟ وهل هو تفكير من داخل نظرية الأنواع السردية، أو من خارجها؟ يأتي مبرر الجواب للذهاب إلى أن هذا الإحلال سيدفع في اتجاه تخطي مشكلة (الأنواع الأدبية) وحدودها ووظائفها. إنه يقول بإحلال (نوع) جديد محل (نوع) قديم. ومعنى ذلك، استلزاما، أنه يفكر داخل نظرية الأجناس الأدبية، والأنواع السردية.

لكن مقصوده يتعدى نظرية الأنواع وحدودها ووظائفها؟ أي أنه دعوة إلى إلغائها، وهنا مكمن تناقض واضح " [30].

ثم يواصل كلامه معللا سبب رفضه لهذا المصطلح قائلا أيضا: "لكن السؤال الذي يمكن طرحه هو: أليس ما هو قائم، في الكتابات الروائية العربية التي تمتح من التاريخ، وترفض الانخراط في (الرواية التاريخية) أقرب إلى الصواب لأنه رفض لـ (التجنيس) في نطاق نوع معروف هو (الرواية التاريخية)؟ وأن استخدام (التخيل التاريخي) هو فقط تأكيد لـ (نوع) ما على حساب آخر؟ وهل فعلا يمكن لهذا الاستخدام أن يحل مشكلة نظرية الأنواع السردية؟ أم أنه يعرضها للالتباس أكثر؟[31].

والحقيقة أن الأمر لن يكون بهذه السهولة، ولا يمكن إلغاء الرواية التاريخية إلى من منظور نظري نقدي. صحيح إنه يمكن استبدال مصطلح الرواية التاريخية بمصطلح التخيل التاريخي ولكن لن يغير هذا الاستبدال شيئا في واقع الأمر، ويعدو الأمر أن يكون استبدال جنس بجنس آخر من حيث تصنيف الأجناس الأدبية فحسب .

الخاتمة والنتائج:

نخلص مما سبق إلى القول بأنّ البحث قد أسفر عن النتائج التالية:

- الرواية تحمل عدة معان، مما جعل من الصعب تعريفها تعريفا دقيقا بسبب حداثة نشأتها وتطورها المستمر. فقد وجد الكثير من النقاد والدارسين صعوبة في تحديد مفهوم دقيق وشامل لها. ومع ذلك فهي تعتبر أم الفنون لأنها من الممكن أن تستوعبها جميعها في جعبتها.
- اختلفت التعريفات وتعددت في تحديد مصطلح التاريخ عند العرب المسلمين، من أمثال ابن خلدون وسيد قطب وعبد الله العروي وغيرهم. كما أنّ لمصطلح التاريخ تعريفات مختلفة ومفاهيم متعددة عند العلماء والفلاسفة الغربيين، منذ أن استخدمت كلمة (تاريخ) من قبل المؤرخ الإغريقي هيرودوت، ثم من جاؤوا من بعده من أمثال ميشال فوكو، والفيلسوف هيغل وإدوارد كار، وغيرهم.
- أما العلاقة التي تقيمها الرواية مع التاريخ فهي علاقة جديدة تعتمد بالأساس على المساءلة الفنية للتاريخ، لا على روايته فحسب، أي إعادة كتابة التاريخ وفق هذا المنظور الجديد؛ فالموضوع الأساسي للتاريخ هو الواقع، بينما واقع الرواية هو المتخيل. ثم إنّ التاريخ يحتمي بما هو حقيقي واقعي، من الأحداث والمجريات، أمّا الرواية فإنها تشتغل على مساحات واسعة من الخيال.
- الخيال عنصر أساسي من عناصر الأدب بعامة، والشعر بخاصة. وهو يلعب دورا أساسيا أيضا في مضمار العلم والاختراع. لذلك حظي الخيال باهتمام كبير من قبل الشعراء والأدباء والنقاد في كل الكتابات التقليدية والحديثة على حدّ سواء .

- إن مصطلح (التخيل التاريخي) مصطلح جديد يدخل حقل السردية العربية والدراسات النقدية الحديثة على يد الباحث عبد الله إبراهيم في كتابه الجديد (التخيل التاريخي: السرد، والإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية)، والذي نال جائزة الشيخ زايد للكتاب عام 2013م، فرع الفنون والدراسات النقدية. غير أن هذا المصطلح قد واجه موجة من الاستهجان والرفض إن على مستوى براء اختراع المصطلح وملكيته، أو على مستوى مدى حداثة المصطلح وقدرته على تقويض دعائم الرواية التاريخية وإلغائها والوقوف على أطلالها .

هوامش

01/ محمد، القاضي، الرواية والتاريخ، دراسات في تخيل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس، 2008م، ص 85.

02/ المرجع نفسه، ص ن.

03/ إبراهيم، عبد الله، التخيل التاريخي: السرد، الإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2013م ص 09.

04/ المرجع نفسه، ص ن.

05/ ينظر: بول، ريكور، من النص إلى الفعل، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001م، ص 08.

06/ ينظر: عادل، فريحات، مرايا الرواية . دراسة تطبيقية في الفن الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 2000م، ص 08.

07/ محمود أمين، العالم، " الرواية بين زمنيتها وزمانها، مقاربة مبدئية عامة "، مجلة فصول، مجلد 01، العدد:01، 1993م، ص13.

*/ علما أن بعض النقاد قد شكك في أن يكون الأستاذ عبد الله إبراهيم هو مبتكر مصطلح (التخيل التاريخي): فقد ذكر الأستاذ حيدر علي سلامة أن هذا المصطلح لم يكن أحد ابتكارات الأستاذ إبراهيم، لأنه تم تدشينه وذكره في ثمانينيات القرن الماضي (العشرين) في كتاب (C. O. Brink: English classical scholarship, Historical Reflections on Bentley, Porson and Housman, first published in 1986 by James Clarke &Co. Ltd, Cambridge, p2). كما أشار الناقد العراقي حسين سرمك حسن إلى هذا الموضوع بقوله: " وفي مراجعتي، سوف أصحّح أولاً،

معلومة الأستاذ حيدر علي سلامة الذي أشار إلى أن مصطلح (التخيّل التاريخي) أو (الخيال التاريخي) أو (The historical imagination) قد تمّ تدشينه وذكره في ثمانينات القرن الماضي في كتاب (C. O. Brink) الذي ذكره في تعليقه، فأقول: إن هذا المصطلح لا يعود إلى ثمانينات القرن العشرين بل قبل ذلك بخمسين عاماً! وأول من ابتكره هو الفيلسوف وعالم التاريخ البريطاني (روبن جورج كولنغوود Robin George Collingwood) المولود عام 1889 والمتوفى عام 1943). ـ كولنغوود هو أول من ابتكر هذا المصطلح: التخيّل التاريخي The historical imagination – ، وذلك في كتابه الذي حمل العنوان نفسه وصدر عن جامعة أوكسفورد في عام 1935، وهو (The historical imagination : 1935, Oxford: Clarendon Press)

المصدر: حسين سرمك حسين: هل سطا د. عبد الله إبراهيم على مصطلح "التخيل التاريخي" ؟ أم ابتكره، موقع الناقد العراقي، التاريخ 2015/01/09م-http://www.alnaked aliraqi.net/article/25469.php

08/ ينظر: إبراهيم، عبد الله، التخيل التاريخي: السرد، الإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية، ص 123.

09/ ينظر: زيدان، جورجي، الحجاج بن يوسف (من المقدمة)، دار الهلال، القاهرة، مصر، 1989م، ص.06

10/ ينظر: عبد الفتاح، الحجمري، " هل لدينا رواية تاريخية «، مجلة فصول في النقد، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، القاهرة، 1997م، ص62.

11/ عزيز شكري، الماضي، في نظرية الأدب، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان،2005م، ص 151.

12/ينظر: عطا الله، سليمان محمود، علم النفس الجنائي، د.ط، الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د.ت، ص259.

13/ عزيز شكري، الماضي، في نظرية الأدب، ص.147

14/ أحمد، أمين، النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967م، ص320.

15/ عبد القادر، القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص 147.

16/ محمد غنيمي، هلال، الرومانتيكية، دار العودة، بيروت، 1986م، ص15.

17/ إبراهيم، عبد الله، السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، 2003م، ص299.

18/ المرجع نفسه، ص ن.

19/ عز الدين، إسماعيل، الشعر العربي المعاصر ـ قضاياه وظواهره الفنية واللغوية الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، 1978م، ص 136.

20/ السعيد، بوطاجين، السرد ووهم المرجع، مقاربات في النص السردي الجزائري، منشورات الاختلاف، الجزائر،2005 م، ص08.
21/ المرجع نفسه، ص ن.
22/ جميل، حمداوي، " مفهوم التخيل الروائي "، محطة مقالات ،19أوت 2006م الموقع : http://arabrenewal.net/index.php?rd=AI&AI0=16063
23/ المرجع نفسه
24/ حسين، خمري، فضاء المتخيل، مقاربات في الرواية، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2002م، ص ص 44/44.
25/ إبراهيم، عبد الله، السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003م، ص 05.
26/ المرجع نفسه، ص 05.
27/ مسعود، ضاهر، عبد الله إبراهيم يصهر الرواية والتاريخ في هوية واحدة، جريدة الحياة، عدد السبت، 18 ماي 2013م. الموقعhttp://www.alhayat.com/Details/514971 :
28/ إبراهيم، عبد الله، التخيل التاريخي، السرد، الإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية، ص 06.
29/ المرجع نفسه، ص ن.
30/ السعيد، يقطين: التخيل التاريخي، جريدة القدس العربي، عدد 31 ماي2017م. الموقع http://www.alquds.co.uk/?p=726944
31/ المرجع نفسه.